روضة الحكايات!!
(١٩)

إنَّه إمامُ عصره بلا منازع..

الدكتور
محمد عمر الحاجي

obeikandl.com

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

obeikandl.com

خِيرَةُ القرون... ..!!

اتفق أصدقاءُ (شعبان) علىٰ أنَ يَلْتقُوا في المَسجدِ الكبيرِ ، بحيث يَستمعونَ إلىٰ خُطْبةِ الجمعة ، والتي يُلقيها الدكتورُ (مصطفىٰ) ، وبعد الصلاةِ يتناقشون في مسألةِ اجْتماعِهِمْ جميعاً في مكانٍ مُحَدَّدٍ .

وبالفعل ، تَوجَّه أهلُ البلدةِ إلىٰ المسجد ، وبعدَ الأذان الثاني صَعِدَ الدكتور علىٰ دَرَجِ المِنْبَرِ ، وألقىٰ خطبةً رائعةً ، تَحَدَّثَ فيها عن الرَّعِيلِ الأولِ ، ورَكَّزَ علىٰ محورٍ رائعٍ ، ملخّصه :

أنّ تلك الكوكبةَ حينما آمنَتْ بالرسالةِ الخاتمةِ ، لم يكنْ ذلك لهدفٍ دنيويٍّ مُعَيَّنٍ ، وكيف يكونُ ذلك ؟

وغالبيةُ الذين آمنوا في بداياتِ الدعوةِ ، كانوا من الفقراءِ والعَبيدِ ، مثل :

(بـــلال ، وسميّـــة ، ويـــاســـر ، وصهيـــب ، وخبّاب بن الأرت ، وعمار ، وسلمان الفارسي و... رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أجمعين) .

كذلك ، فلم يَكُنْ لدىٰ الرسولِ ﷺ مالٌ ليُوَزِّعُ بعضُه عليهم... ، ولم يكن قائداً للدولة ، حتىٰ يوَزّعَ المَناصِبَ علىٰ الناس!!

إنما كان يعيش عيشةَ الفقراءِ والمساكين ، ويَطْلُبُ من اللهِ تعالىٰ أن يُحييَه مسكيناً... ، ويُميتَه مِسْكيناً ويَحْشُرَه يومَ القيامةِ مع المَساكين!!

ولذلك أكّد الرسولُ صلواتُ الله عليه علىٰ اتّخاذِ الصحـــابـــةِ قُـدوةً وأُســوةً ، فَهُـمْ كمـا وَصَفَهُـم الرسولُ ﷺ ، « إن مَثَلَ أصحابي في أُمَّتي كالمِلْح في الطعام ، لا يصلحُ الطعامُ إلا بالمِلْح» .

وقد ساق الدكتور الخطيبُ طائفةً ونماذجَ من صفاتِهِم الرائعةِ ، والتي تُعَدُّ بحقٍّ مجالاتٍ للقُدوةِ والأُسْوةِ .

منها إقبالُهم علىٰ العلمِ والتعلّم ، ومنها إنفاقُهم الأموالَ في سبيلِ الله ، ومنها تَقديمُ أغلىٰ ما لَدَيْهِم ـ وهو الرُّوحُ ـ دِفاعاً عن العقيدةِ والإسلام ، ولذلك هَجَروا الأوطانَ ، وتَرَكوا كلَّ ما يملكون في مكة المكرّمَة ، وانطلَقوا إلىٰ المَدينةِ المُنَوّرة ليتابعوا حركةَ الدعوةِ إلىٰ الله تعالىٰ .

* * *

obeikandl.com

دَوائر الأُسْوة والقُدوة

وفي الخطبةِ الثانيةِ تَحَدَّثَ الدكتور الخطيبُ عن مَوضوعٍ مُهِمٍّ وحَسّاسٍ ، وهو موضوعُ القدوةِ والأُسْوةِ ، وقال في بدايةِ حَديثِهِ :

إنني أستطيعُ أنْ أُمثِّلَ هذا المَوضوعَ بعدّةِ دوائرَ ، كلُّ دائرةٍ منها تَنفتحُ علىٰ الدائرةِ الأخرىٰ ، وهكذا حتىٰ تتكوّنَ شبكة متداخلةٌ من الدوائرِ المُنفتحَة!

فالدائرةُ الأولىٰ تَعني أنّ القُرآنَ الكريمَ وجّهَ الرسولَ الخاتمَ صلواتُ الله عليه إلىٰ أنْ يتّخِذَ مَنْ سَبَقَهُ من الأنبياءِ والرسُلِ نماذج للقدوةِ والأسْوةِ ، مصداق ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

وهذه الدائرةُ تَنفتحُ علىٰ الدائرةِ الأوسع ، أي الدائرةِ الثانيةِ ، والتي تَرمزُ إلىٰ كلِّ جزئيةٍ من حركةِ حياةِ النبيِّ ﷺ ، مصداق ذلك قوله سبحانه ، وهو يوجِّهُ المؤمنين إلىٰ التمسُّكِ بِهدْيِه وسنّتِه وسيرتِه صلواتُ الله عليه ، وأنّ طريقَ الفوزِ والنجاحِ لا يكونُ إلا بذلك :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

ثم تكونُ الدائرةُ الثالثةُ وهي حياةُ الخلفاءِ الراشدين ، مصداق ذلك قول النبي ﷺ : « عليكم بسنّتي وسنة الخلفاءِ الراشدين من بَعْدي »

وهم : ساداتُنا أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أجمعين .

ثم تكونُ الدائرةُ الخامسةُ ، وهي القرونُ الثلاثةُ الأولىٰ ، أيْ كلُّ مَنْ عاشَ من المؤمنين في

(٣٠٠) سنة الأولىٰ ، حيث ضَمَّتِ العهودَ التالية :

عَهْدَ الرسولِ صلواتُ الله عليه ، وعَهْدَ الراشدين ، وعَهْدَ الأمويين ، وعَهْدَ ازدهار العباسيين ، مصداق ذلك قولُ الرسول ﷺ : « خَيرُ القرونِ قَرْني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يَلونَهُمْ » .

والجميل في المسألةِ أنّ الدكتور الخطيب ذَكَرَ أمثلةً من كلِّ عَهدٍ.. وذَكَرَ العلومَ النافعةَ التي حصلوا عليها... وقَدَّموها للناسِ .

وعندما ذَكَرَ القرنَ الهجريَّ الثالث ، ذَكَر من كبارِ علمائه المحدّث الفقيه (أبا جعفر الطحاوي)... ثم التفتَ الدكتورُ إلىٰ ساعةِ الحائِط ، فرأىٰ أنّ الوقتَ قد تَداركَهُ... ، فوعَد الحاضرين أن يُكْمِلَ الموضوعَ عن (الأسوة والقدوة) في الخطبةِ القادمةِ إنْ شاء الله تعالىٰ...

وبعدَ الصلاةِ ، اتفقَ الأصدقاءُ علىٰ الذّهابِ إلىٰ بستانِ صديقِهِم (زهير)... ، وكانت جلسةً رائعةً ، امتدتْ حتىٰ غيابِ الشمسِ ، حيثُ الطبيعةُ الساحرةُ... ومَرَحُ الأصدقاء.. والمُزاحُ البريء و...

* * *

obeikandl.com

بطاقتهُ الشخصية

وفي صبيحةِ اليومِ الثاني تَوَجّهَ (شعبان) إلىٰ المكتبةِ العامّةِ ، يريدُ أن يَبحثَ في ترجمةِ حياةِ الفقيهِ أبي جعفر الطحاوي .

وهكذا كان ، فقد عَكَفَ علىٰ مطالعةِ غالبيةِ ما كُتب عنه.. فلخّص ذلك وهذّبه... ثم أخذَ الإذْنَ... وكانت محاضرةً قيّمةً ، ملخّصُها :

هو (أحمد بن محمد الأزدي) ، وأما كلمة (الطحاوي) فتعود إلىٰ قرية (طحا) بمصر ، وهي التي يَنتسبُ إليها الإمامُ .

وُلِدَ في سنة (٢٣٩هـ) ، ونشأ في أسرةٍ علميةٍ صالحةٍ ، فوالدُه(محمد) كان أديباً وفاضلاً ، وأمُّه كانتْ معروفةً بالصلاحِ والعلمِ ،

فهي أختُ الإمامِ (المُزني) صاحبِ الإمامِ الشافعي رحمهم الله تعالىٰ .

ومنذُ نعومةِ أَظْفارِه تَتَلْمَذَ علىٰ يدِ والده ووالدتِه ، حيثُ حَفِظَ كتابَ الله تعالىٰ عن ظَهْرِ قَلْبٍ ، إضافةً إلىٰ تربيتِه علىٰ السلوكِ والآدابِ والأخلاقِ .

ثم عَكَفَ علىٰ حضورِ مَجالِس خالِهِ (المُزَني) ، سواءً العامةُ منها أو الخاصة .

واستفادَ كثيراً من مكتبتِه الزاخِرَةِ بأمّهاتِ الكتب.. ، خاصةً ما يدورُ حولَ علومِ المذهبِ الشافعي ، إضافة إلىٰ تَتَلْمُذِه علىٰ يدي (بكّار بن قتيبة) في علومِ الحديث ، وعلىٰ يدَي (أحمد بن عمران) في علومِ الفقه...

وهكذا ، ما إنْ قارب (الطحاوي) الخامسة والعشرين من العُمر ، حتىٰ أصبحَ عَلَماً من أعلامِ عَصرِه...

ثم انتقلَ من المَذهبِ الشافعيِّ إلىٰ المذهب الحنفي ، ورَحَلَ ـ في سبيلِ تَحصيلِ العلومِ ـ إلىٰ بلادِ الشامِ ، فاستفادَ وأفادَ .

لذلك عَدُّوا له من المَشايخِ العددَ الكَبيرَ ، وعلىٰ رأسِهِمْ (خالهُ المُزَني) و(الإمامُ النَّسائيُّ) و(أبو داود) وغيرهم ، كما أَحْصَوا عددَ تلامِذَتِه فبلَغوا عدداً كبيراً ، ومنهم (الإمامُ الطبرانيُّ) مما يدلّ علىٰ باعِهِ الطويلِ في مَجالاتِ التعلّم والتعليمِ .

والذي ساعَدَ الطحاويَّ علىٰ ذلك : الحالةُ العلميةُ والنَّهْضةُ المُباركةُ في جميع أقطارِ الدولةِ الإسلاميةِ ، فبالإضافةِ إلىٰ العاصمةِ بغدادَ ، برزتْ عدةُ عواصِمَ للثقافةِ والنشاطاتِ العلمية ، مثل القاهرة ، ودمشق ، ومكة ، وقُرْطُبَة... إضافة إلىٰ وُجودِ المكتباتِ العامة ، مثالُ ذلك أنّ الحاكِمَ المُستنصِرَ صاحبَ الأندلسِ ، كان يَبْعَثُ العلماءَ

وأهلَ الاختصاصِ إلىٰ بلادِ المَشرقِ ، وذلك بهَدَفِ شِراءِ الكتبِ... حتىٰ قيل إن مكتبتَه ضَمَّتْ قرابة أربعمئة ألف مجلّد!!

أما العلماءُ البارزون في عَصْرِ الطحاوي ، ففي مجالاتِ الفقهِ اشتهر (الربيع بن سليمان) و(بكّار بن قتيبة) ، وفي مجالاتِ عِلْمِ الحَديثِ بَرزتْ أسماءٌ لامِعَةٌ... وكُتبتِ المستنداتُ والمُصَنّفاتُ والسُّنَنُ ، كمُسْنَدِ الحُمَيدي ، ومُسْنَدِ ابن حنبل و...

وفي مَجالاتِ علوم اللغة ، بَرَزَ علماءُ كبارٌ ، أمثالُ (أبي جعفر النحاس) و(ابنُ ولاد).. وفي مجالاتِ التاريخِ ، اشتهرَ (ابن عبد الحكم) و(ابن يونس) و(الكندي) و...

كلّ ذلك جَعَلَ منَ (الطحاويِّ) رجلاً موسوعياً ، لذلك أصبحَ مَرْجِعاً في علومِ الشريعة .

مكانتُه العالية

تابع (شعبان) حكايتَه عن الإمامِ الطحاويِّ بالقول :

وهكذا نالَ الطحاويُّ كلَّ احترامٍ وتَقديرٍ ، وخاصةً من العلماءِ البارزين ، حتىٰ إن العلامةَ الكبيرَ (ابنَ تَغْرِي) قال عنه : (كانَ الطحاوي إمامَ عَصْرِه بلا مُدافعةٍ في الفقه ، والحديثِ ، واختـــلافِ العلمـــاءِ ، والأحكـــامِ ، واللغـــة ، والنحو)...

وقد بَرَزَ في مجالاتٍ علميةٍ أخرىٰ ، ففي مَجالِ التفسيرِ مثلاً ، أَلّفَ تفسيراً بديعاً عَنْوَنَهُ بـ (أحكام القرآن) سارَ فيه علىٰ نَمَطِ التفسيرِ بالمأثور...

ولا أدلَّ علىٰ مكانتِه المرموقة ، من مصنّفاتِه التي وَضَعها ، وأهمُّها : (أحكامُ القرآن الكريم) و(اختلافُ العلماء) و(التسويةُ بين حَدَّثنا وأخبرنا) و(شرحُ معاني الآثار) و(الجامعُ الكبير في الشروط) و(العقيدةُ الطحاوية) وغيرها...

هذا ، إضافة إلىٰ أخلاقه الحَميدةِ ، وحُسْن تَعامُلِه مع الناس ، وخاصةً تواضعَهُ للسائلين والمستفتين ، وكذلك عِفتُّه ووَرَعُه وزُهْدُه بما في أيدي الناسِ ، مما جَعَلَ القضاةَ والأمراءَ يأخذون رأيَه ، ويُشاورونَه في الأمورِ العصيبة...

* * *

الخاتمة... والمآل!!

وبعدَ حياةٍ حافلةٍ بالعلم والتعليم، والتصنيفِ والدعوة، حان مَوعدُ رحيلهِ عن هذه الدنيا الفانية، ورجوعِهِ إلىٰ خالقِهِ سبحانه وتعالىٰ، فأَسْلَمَ الرُّوحَ إلىٰ بارئها، وكان ذلك في سنة (٣٢١هـ) .

... ورَتَّلَ (شعبان) قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر : ٢٧-٣٠] فرحم الله الفقيه... العلامة (أبا جعفر الطحاوي) ونَفَعَنا بعُلومه .

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *